

لم بذلك إلى جودة الماء التي ما بعدها جودة فيما أظن - طيب الهواء ونسيم الأرز والصوبر العليل البليل. ومن الباروك إلى عين زحنتا ساعة على الراكب وفي هذه القرية فنادق حسنة لكثرة ورود المصطافين إليها لنتع بنع الصفا وقاع الريم النذين ينبعان في ظاهرها ولتسريح عيونهم بحمال موقعها وخصب واديها وحراجة الغياء. وعين الباروك وعين زحنتا على مسافة واحدة في العنوا وماؤها يكاد يكون متشابهاً والطريق من عين زحنتا إلى عين صوفر ماراً بطريق السمكة الحديدية نحو ساعتين ونصف في العربة أو على الراكب وهذه العيون ينتفع بها كلها في سقي الحدائق في القرى البعيدة والقرية.

ومن صوفر قصدت حمانا وقرنابل فصليما فعدات فبحسن فكفيا فبيت شباب فالشاوية فالفريكة. وهنا قضيت مع صديقي الابرامين أفندي ربحاني الكاتب الشاعر المفكر الشهير أياماً رائقة ريثما ركبنا البحر من بيروت قاصداً القطر المصري فأورينا. هذا وقد كان سبق لي منذ سنين أن زرت بعض قرى كسروان والبترون وزحنتا فأكون هذه المرة بما خبرته من حال هذه الأفضية الثلاثة الأخرى وهي جزين والشوف والمق خفيماً بأن أتكلم على الجبل خصوصاً ولم يتقصني منه إلا قضاء الكورة فقط.

نبذة في تاريخ لبنان

٣

لم يخرج لبنان في دور من أدواره عن كونه معقلاً حصيناً كل من سادته يكون في الأعم من حالاته إلى الشدة والمضاء يحب من يسودهم وقد يحب به جيرانه من أهل البلدان

الأخرى. ولقد كان تاريخه السياسي كتاريخ معظم المقاطعات السورية استقلالاً وخصوصاً
لغريب ولكن أيام الاستقلال أكثر من غيرها في غيره من أقاليم الشام.
والغالب أن قاصيته خضعت للفيقيين كما خضعت سواحله واستولت عليه حكومة
الأتوريين العربية في عد الروم. والأتوريون شعب شديد الشكينة مولع بالحروب أنكفاً
من حوران والنجاح بلادهم ونزل البقاع فأنشأ له مدينة شاليس أو عين جر جعلها
عاصمة وأخذ يشن الغارات على لبنان ويتقدم إلى الأمام حتى تيسر له أن تسور قمه
وأخضعه لسلطانه ثم انحدر إلى سواحل الشام وجعل مدينة طرابلس مركزاً ثانياً (١)
وأكثر من كانوا يتأذون من بأس الأتوريين سكان جبيل وبيروت فتم يكونوا يملكون
معهم لأنفسهم طولاً ولا حولاً.

نعم خضع هذا الجبل للفتحين واستولى على زمامه المردة وهم قوم من نصارى الفرس أتى
بهم الروم ليدفعوا عن لبنان غزوات الأتوريين فزَل المردة (٢) في الشمال أوائل القرن
الأول للهجرة ثم جاء الصوخيون ونزلوا جنوبه وتوالى عليه الأمراء المعنيون قال عساف
التركمان ومن سلالة المعين الأمير فخر الدين الذي عهد إليه السلطان سليم فاتح
سورية ومصر بولاية الشام ثم الشهابيون ومن أمرائهم الأمير بشير المنطقي الثاني ومن
أمراء لبنان جان بولاد (جبلاط) الذي حكم الشام سنتين في القرن العاشر فيما ذكر.
وروى التاريخ أن سكان كسروان أخذوا في القرن السادس أوائل القرن السابع للهجرة
يطبقون أيدي اعتدائهم على أبناء السيل فيخطفون المسلمين ويبيعونهم من الأعداء فكان
عساكر المسلمين معهم بين عدوين هم في جبال صنين أو الظننين كما سماهم أبو الفداء
وجيوش التار التي اهتمت على هذه البلاد كالسيل الهرم إن نجا المسلم من التري لا

ينجو من الكسرواني (سنة ٦٩٩) ولذا سار شيخ الإسلام ابن تيمية سنة ٧٠٤ لنصح أولئك العصاة فلما لم ينجح النصح فيهم قاتلتهم الجيوش الشامية قتالاً هائلاً برعاية جمال الدين أقوش الأفرم نائب دمشق. والغالب أن سكان كسروان كانوا إذ ذاك خليطاً من النصرية والموارنة وغيرهم كما كان سكان ساحل كسروان من اليعاقبة.

وما زال نواب الشام (١) الأشرف بن خليل قلاوون والناصر محمد بن قلاوون يحاربون النصرية في كسروان حتى أخرجوهم وجعلوا بدلهم قوماً من التركمان في بعض النواحي وبقي كثير من المتأولة معهم كما فعل صلاح الدين يوسف لما استخلص ساحل لبنان ولا سيما جبيل وأعمالها من أيدي الإفرنج سنة ٥٨٣ فرتب (٢) في جبيل قوماً من الأكراد لحفظها. فبقيت على ذلك إلى سنة ٥٩٣ فباعها الأكراد الذين كانوا بها ورحلوا عنها ثم عادت تلك السواحل فاستولى عليها الإفرنج بعد صلاح الدين لأن الكسروانيين كانوا نصراء الصليبيين يمدونهم بالذخائر والرجال.

ولذلك أمر حسام الدين لاجين نائب دمشق بأن تخرب بلادهم فخربت على عهده وعهد غيره من حكامها ولا سيما على عهد الأفرم كما تقدم إذ قضى بقطع كرومهم وتخريب يتأذون من بأس الأيتوريين سكان جبيل وبيروت فلم يكونوا يملكون معهم لأنفسهم طويلاً ولا حولاً.

نعم خضع هذا الجبل للفتاحين واستولى على زمامه المردة وهم قوم من نصارى الفرس أتى بهم الروم ليدفعوا عن لبنان غزوات الأيتوريين فزل المردة (٢) في الشمال أوائل القرن الأول للهجرة ثم جاء التتوخيون ونزلوا جنوبه وتوالى عليه الأمراء المعينون قال عساف التركمان ومن سلالة المعينين الأمير فخر الدين الذي عهد إليه السلطان سليم فاتح

سورية ومصر بولاية الشام ثم الشهابيون ومن أمرائهم الأمير بشير المنطقي الثاني ومن أمراء لبنان جان بولاد (جنبلاط) الذي حكم الشام سنتين في القرن العاشر فيما ذكر. وروى التاريخ أن سكان كسروان أخذوا في القرن السادس أوائل القرن السابع للهجرة يطينون أيدي اعتدائهم على أبناء السبيل فيخطفون المسلمين ويبيعونهم من الأتداء فكان عساكر المسلمين معهم بين عدوين هم في جبال صنين أو الظنين كما سماهم أبو الفداء وجيوش التتار التي انهالت على هذه البلاد كالسيل العرم إن نجا المسلم من التتار لا ينجو من الكسرواني (سنة ٦٩٩) ولذا سار شيخ الإسلام ابن تينية سنة ٧٠٤ لنصح أولئك العصاة فنما لم ينجح النصح فيهم قاتلتهم الجيوش الشامية قتالاً هائلاً برعامة جمال الدين أقوش الأفرم نائب دمشق. والغالب أن سكان كسروان كانوا إذ ذاك خليطاً من النصرانية والموارنة وغيرهم كما كان سكان ساحل كسروان من اليعاقبة.

وما زال نواب الشام (١) الأشرف بن خليل قلاوون والناصر محمد بن قلاوون يحاربون النصرانية في كسروان حتى أخرجوهم وجعلوا بدلهم قوماً من التركمان في بعض النواحي وبقي كثير من المتأولة معهم كما فعل صلاح الدين يوسف لما استخلص ساحل لبنان ولا سيما جبيل وأعمالها من أيدي الإفرنج سنة ٥٨٣ فرتب (٢) في جبيل قوماً من الأكراد لحفظها. فبقيت على ذلك إلى سنة ٥٩٣ فباعها الأكراد الذين كانوا إليها ورحلوا عنها ثم عادت تلك السواحل فاستولى عليها الإفرنج بعد صلاح الدين لأن الكسروانيين كانوا نصراء الصليبيين يمدونهم بالذخائر والرجال.

ولذلك أمر حسام الدين لاجين نائب دمشق بأن تخرب بلادهم فخربت على عهده وعهد غيره من حكامها ولا سيما على عهد الأفرم كما تقدم إذ قضى بقطع كرومهم وتخريب

ويدمجهم في جهنهم حتى بلغوا الجنوب واحفظ الدروز ببلادهم بما فيهم من الشدة والإباء.

وزعم بعضهم أن الموارنة لم يسكنوا كسروان قبل القرن السادس عشر للميلاد لأنه لا يوجد بين أديار كسروان اليوم دير واحد يسبق عهده القرن السابع عشر وأن جيل والبترون كانتا عنى الحيداء مع الصليبيين فلم تحازا إليهم ولا للمسلمين أصحاب البلاد إلا أن هذا لم يمنع من الرواية الثانية من ممالاة الموارنة للصليبيين ودلالتهم عنى الطرق ونجدقم (١) لهم وثباقم معهم عنى العهد إلى النهاية حتى خرجوا من سورية سنة ١٣٠٢ م ومن أجل هذا اضطر حكام البلاد أن يحرقوا ويقتلوا ويسبوا بعض القرى القريبة من طرابلس مثل أمهدن وبقوفا وحصرون وكفرسارون والحدث.

وما برح لبنان ينقسم بين أمراء المقاطعات يحكونه عنى النحو الذي كانت عنده صورة الحكم في البلاد العثمانية قبل تنظيم الولايات. يقوي اللبنانيون تارة والقيون أخرى والناس معهم في أمر مريح ومن التحزبات القيسية والبنانية ما وقع في الربع الأول من القرن السادس عشر للميلاد بين الأمير فخر الدين المعني القيسي وجمال الدين الأرسلاي اليني. قال المقريري وعشير الشام فرقان قيس ويعن لا يتفقان قط وفي كل قليل يثور بعضهم عنى بعض.

ونشأ حزب آخر وهو الحزب اليزبكي نسبة إلى يزنك جد الشيخ عبد السلام العماد زعيمه والجن بلاطي نسبة إلى الشيخ علي جن بلاط زعيمه الآخر وذلك سنة ١٧٢٩-١٧٥٤ وامتد في لبنان ولم يزل له أثر كما نشأت أحزاب أخرى كالعنوفي والمكاريمي ومثل هذه الأحزاب قد لا تخلو من حدوث فتق فشق فيها الدماء وتكثر

الأيامي والإماء كما فعل الحماديون وأحرقوا بلاد جيل والبترون فخربت جميعها ونزح سكانها إلى بلاد ابن معن وكانت العداوة بين بني سيفا وبني معن سبباً في تخريب الجبل أيضاً.

ومن الوقائع التي يثبت فيها الأطفال تلك الواقعة التي جرت في القرن العاشر عقيب أن غلب بعض أمراء لبنان الصرة السنطانية من جون عكا بينما كانت محمولة إلى الأستانة فجمع إبراهيم باشا صهر السنطان مراد بن السنطان سليم العساكر من مصر وقبرص ودمشق وحنبل وقدم بها مرج عرجوش قرب زحنة وأمسك طريق البحر والبقاع عنى الدروز فقتل نحو مئاة منهم وأسّر بعض الأمراء.

وما زالت حال الجبل في إقبال وإدبار تقع اليوم فتنة العاقورة وغداً وقعة مرحلاتا وبعده وقعة أرض خندة ثم فتنة برج الغنول وبعد ذلك وقعة عين دارة حتى أقامت له الدولة سنة ١٨٤٢ عمر باشا النسوي والياً فلم تطل مدته حتى منحت الدولة لنجل امتيازات وقسمته في السنة التالية إلى مقاطعات. وتعرف الأولى (١) بقائم مقامية النصارى وهي الشمالية تمتد من نهر البارد في عكا إلى طريق دمشق مع بعض قرى ساحل بيروت تولاهما الأمير حيدر إسماعيل النعبي وتعرف الثانية بقائم مقامية الدروز وهي الجنوبية تمتد من طريق الشام إلى منتهى جبل الريحان في الشمال مع قرى إقنيم التفاح وبعض قرى ساحل بيروت وتولى شؤونها الأمير أحمد عباس الأرسلاي أما قصبة دير القصر فكان يتولى شؤونها رجل من قبل والي إيالة صيدا وكانت قائم مقامية النصارى مؤلفة من المتن وكسروان والبترون والكورة وزحنة وقائم مقامية الدروز تشمل قضائي الشوف وجزير وقسماً من

غربي البقاع وبعض قرى مديرية الساحل الداخنية اليوم في قضاء المتن وفرض على لبنان في كل سنة ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس.

ودام الحال على ذلك إلى سنة ١٨٦٠ وقد اشتعلت جذوة تلك الفتنة المشؤومة بين الدروز والنصارى في لبنان فنحت الدولة هذا الجبل استقلالاً إدارياً بأن جعلته متصرفية يتولى شؤونها حاكم مسيحي تبعث به الدولة كل خمس سنين أو تجدد انتخابه بمصادقة الدول. وجعل مال لبنان سبعة آلاف أو ثلاثة ملايين ونصف مليون قرش وضعت على الأعناق.

ولحكومة لبنان موارد أخرى سنوية منها نحو أربعة ملايين قرش من بدلات حاصلات الأراضي الأميرية ورسوم الخاكم والمقاولات والعربات والعجلات وتعديل بثلاثة عشر ألف ليرة ولا تتناول الدولة الآن شيئاً من مال الجبل ولا تعطيه وكانت منذ سنين تدفع إليه العجز في ميزانيته.

وفي لبنان ألف جندي لبناني بإدارة أميرالاي لبناني وفي بيت الدين فرقة من الجند العثماني اشافظ وعنيها أميرالاي بإدارة حكومة لبنان.

وتحاول حكومة الجبل الآن أن تزيد الضرائب قليلاً لتيمر لها القيام ببعض الإصلاحات والتوسعة على موظفيها كما وسع عليهم في سائر البلاد العثمانية بعد الدستور إلا أن معظم الأهليين يقاومونها وفاقهم أن النيرة منذ خمسين سنة لا تعادلها اليوم إلا الثلاث ليرات أو أكثر لوفرة الذهب وغلاء الأسعار. وهم يعتبرون أن هذا العمل إخلال بشروط امتيازاتهم ويخافون أن يتدرج الأمر إلى العبث بقانونهم فيختل نظامه مع الزمن من أجل هذا أبى اللبنانيون أن يبعثوا إلى مجلس الأمة العثمانية بنواب منهم يمثلونهم وما نظن

وطنتهم تحول بينهم في الانتخاب القادم وبين إرسال نواب عنهم حتى يشتركوا ومسانر
أخواهم العثمانيين في الغنم والعزم فليس من الإنصاف أن يبقى جلهم بدعوى قلّة خصبه
على الحياد وهو في وسط البلاد ويحسب جزءاً متمماً من أجزاء السلطنة العثمانية كيف
تقلب الحال وتعددت المظاهر والأشكال.

غابات لبنان

٤

ليس في لبنان أرض تبلغ مساحتها مائة كيلو متر مربع بل غاية ما فيه من الأراضي
منحدرات ومنعرجات وأودية ضيقة ومسائل صغيرة وفيها جعل القدماء زروعهم
وأشجارهم وأكثر الأراضي مما يصنع للشجر أكثر مما يصنع للبقول والغلات شأن جبال
الأرض في الأكثر. وليس في الأيدي نص قديم يشير إلى أصناف زراعة لبنان منذ عرف
التاريخ غير ما نقناه في نبذة سألقة عن مؤلفي العرب من أن فيه أصناف الفواكه
والزروع وأكثرها مما ينبت بنفسه وهو كلام مجمل لا يشبع ولا يقنع. وإذا كانت طبيعة
أرض لبنان لم تتغير منذ عشرات من القرون كانت الزروع التي لا تناسبها أرضه ضعيفة
فيه أو تكاد تكون معدومة.

ولكن لم تخل أرض لبنان في زمان من أزمانها من الزيتون والتين والكرم والخروب والجوز
والنوز والتفاح والصنوبر والتوت من الأشجار المثمرة والزان والسنديان والسرور والأرز
من الأشجار الغير مثمرة. وقد أكثر القدماء والمحدثون من الكلام خاصة على تاريخ الأرز
لورود ذكره في الكتاب المقدس مرات ولأن من خشبه بني قصر داود هيكل سليمان
والهيكل الثاني الذي جدد في أيام زربابل وسقف الهيكل المجدد في عهد هيودوس وقبة